١٣ ـ القضايا الكبرى في الإسلام

قتل مالك بن نويرة

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

كان مالك بن نُوَيْرَةَ التميمي اليربوعي شاعراً شريفاً ، معدوداً في فرسان بني يربوع في الجاهلية وأشرافهم ، وبلغ من أمره أنه كان يُضرب به المثل فيقال : مَرْعًى ولا كالسَّعْدَانِ ، وماء ولا كَسَدَّاء ، وفتى ولا كمالك . وبلغ من شرفه أنه كان يردف الملوك ، وللردافة موضعان : أحدهما أن يردفه الملك على دابته في صيد أو غيره من مواضع الأنس . والموضع الثاني أنبل ، وهو أن يخلف الملك إذا قام عن مجلس الحكم ، فينظر بين الناس بعده . ولكنه كان فيه خُيَلاء ، لما كان يرى من نبله وجماله .

وقد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فيمن وفد عليه من العرب ، فاستعمله على صدقات قومه بني يربوع ، وقد مات صلى الله عليه وسلم وهو عامل على تلك الصدقات ، فلما بلغه موته اضطرب فيها فلم يحمد أمره ، وفرق ما في يده من إبل الصدقة ، فكلمه الأقرع بن حابس والقعقاع بن معبد فقالا له : إن لهذا الأمر قائماً وطالباً ، فلا تعجل بتفرقة ما في يدك . فقال :

أراني الله بالنعم المنـــدى . بيرقة رحرحان وقد أرَانِي
تُمَشِّي يا ابن عوذة في تميم وصاحبك الأقيرع تَلْحَيَانِي

يعني أم القعقاع ، وهي معاذة بنت ضرار بن عمرو .

وقال أيضاً :

وقلت خذوا أموالكم غير خائفٍ
ولا ناظر فيما يجيء من الغَدِ
فإن قام بالأمر المُخَوَّف قائمٌ
منعنا وقلنا الدِّينُ دينُ محمـــدِ

يعني أنهم لا يدينون إلا له ، فإذا مات لا يدينون بعده لانتفاء أمر النبوة .

فلما فعل مالك ذلك في كثير من العرب الذين ارتدوا ومنعوا الزكاة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، أرسل أبو بكر إليهم خالد بن الوليد وغيره في جيوش من المهاجرين والأنصار ، وكان فيما أوصاهم : إذا نزلتم فأذَّنُوا وأقيموا ، فإن أذَّنَ القوم وأقاموا فكفوا عنهم ، وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة ، ثم اقتلوا كل قتلة الحرق فما سواه ، فإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسألوهم ، فإن هم أقروا بالزكاة قبلتم منهم ، وإلا فلا شيء إلا الغارة ولا كلمة .

وقد قصد خالد بن الوليد مالكاً بعد أن فرغ من أسد وغطفان وغَنِيّ ، فلما علم مالك بقصده ندم وتحير في أمره ، ففرق قومه في أموالهم ونهاهم عن الاجتماع ، فلما وصل خالد إلى مكانهم لم يجد فيه أحداً ، فبعث السرايا وأمرهم برعاية وصية أبي بكر رضي الله عنه ، فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر من بني ثعلبة بن يربوع وغيرهم ، وقد اختلفت السرية فيهم ، وكان أبو قتادة رضي الله عنه فيمن شهد أنهم قد أذَّنُوا وأقاموا وصلوا ، فلما اختلفوا فيهم أمر خالد بحبسهم ، وكانت ليلة باردة لا يقوم لها شيء ، وجعلت تزداد برداً ، فأمر خالد منادياً فنادى : أدفئوا أسراكم . وكان في لغة كنانة إذا قالوا : أدفأنا الرجل وأدفئوه ، فذلك معنى اقتلوه ، وفي لغة غيرهم : أدفئوه من الدفء . فظن القوم أنه يريد القتل ، فقتلوهم على هذا الظن ، وكان ضرار بن الأزور هو الذي قتل مالكا ، فخرج خالد وقد فرغوا منهم ، فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه . وقد وقع خلاف بين القوم في قتلهم ، وقال أبو قتادة لخالد : هذا عملك . وقد عاهد الله ألاَّ يشهد حرباً بعدها أبداً .

وهناك رواية أخرى أراها أقرب من هذه الرواية ، وهي أن خالداً راجع مالكا فيما فعله ، فقال له مالك : إني آتي بالصلاة دون الزكاة . فقال له خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً ، لا تقبل واحدة دون أخرى . فقال مالك : قد كان صاحبك يقول ذلك . ففهم خالد أنه يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : وما تراه لك صاحباً ، والله لقد هممت أن أضرب عنقك . ثم تجاولا بالكلام طويلا ، فقال له خالد : إني قاتلك . فقال له مالك : أوبذلك أمرك صاحبك ؟ فقال له خالد : وهذه بعد تلك ،

والله لأقتلنك . ثم قدمه فضرب عنقه وعنق أصحابه ، وقد اختلفوا أيضاً فى قتلهم على هذه الرواية ، ومن يؤاخذ خالداً يرى أن هذا ليس بصريح فى الكفر ، لأن مثل هذا يمكن أن يعد من جفوة الأعراب ، ويجوز أن يكون قد عنى بصاحبه أبا بكر

وكان لمالك امرأة فائقة فى الجمال ، تسمى أم تميم بنت المنهال ، فلما قتله خالد تزوج امرأته قبل أن يستبرئها ، ثم تركها حتى ينقضى طهرها ، فأكثر فى ذلك القالة على نفسه ، حتى اتهمه أناس بأنه إنما قتله لأجل أن يخلفه عليها .

فلما قتل مالك قصد أخوه متمم بن نويرة أبا بكر ينشده دم أخيه ، ويطلب إليه فى سبيهم ، وكان شاعراً جيد الشعر ، فلما وصل المدينة صلى مع أبى بكر الصبح ، ثم أنشد :

نعم القتيل إذا الرياح تناوحتْ ... تحت الإزار قتلتَ يا ابن الأزْوَرِ
أدعوته بالله ثم قتلتَـــهُ ... لَوْ هُـو دعاك بذمة لم يغدر

فقال أبو بكر : والله ما دعوته ولا قتلته . فقال :

لا يضمر الفحشاء تحت ردائه ... حلو شمائلُهُ عفيف المِئْزَرِ
ولنعم حشو الدرع أنت وحاسراً ... ولنعم مأوى الطارق المُتَنَوِّر

ثم بكى حتى سالت عينه ، ثم انخرط على سِيَةِ قوسه مغشياً عليه ، ولما أفاق طلب من أبى بكر دم أخيه ، وأخذ يدافع عن قضيته بالشعر والنثر أحسن دفاع ، ومضى يطرى أخاه ويذكر محاسنه ويرثيه حتى لفت أهل المدينة إليه ، وصار شعره حديث أنديتهم ومجالسهم ، ومن ذلك قصيدته المشهورة فى الرثاء ، وهى ممدودة من عيون المراثى :

لَعَمْرِي وما دهرى بتـــأبين مالكٍ
ولا جَزِعٌ مما أصـــاب فأوجعَا
لقد كَفَّنَ المنهال تحت ردائه[1]
فتى غير مِبْطَانِ العَشِيّات أرْوَعَا

وقد صلى يوماً الصبح مع عمر بن الخطاب ، فلما انفتل من صلاته سأل عنه فقيل إنه متمم بن نويرة ، فاستنشده قوله فى أخيه ، فأنشده هذه القصيدة حتى بلغ إلى قوله :

وكنا كندمانى جذيمة حقبةً ... من الدهر حتى قيل لن يتصدَّعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا ... لطول اجتماع لم نَبِت ليلة مَعَا

فقال عمر : هذا والله التأبين ، ولوددت أنى أحسن الشعر فأرثى أخى زيدا بمثل مارثيت به أخاك .

وكان عمر رضى الله عنه من الذين رأوا مؤاخذة خالد بقتل مالك وتزوجه امرأته قبل استبرائها ، فذهب إلى أبى بكر وقال له : إن فى سيف خالد رهقا ، وحق عليه أن يقيده . وأكثر عليه من ذلك .

فلما رأى أبو بكر ذلك كتب إلى خالد أن يقدم عليه ، فأقبل قافلا حتى دخل المسجد وعليه قباء ، وعليه صدأ الحديد ، معتجراً بعمامة قد غرز فيها أسهما ، فلما أن دخل المسجد قام إليه عمر فانتزع السهم من رأسه فحطمها ، ثم قال : أقتلت امرءا مسلما ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بأحجارك . فلم يكلمه خالد ، وظن أن رأى أبى بكر على رأى عمر فيه .

فلما دخل على أبى بكر سأله عما فعل ، فأخبره بما كان منه وذكر عذره فيه ، ثم شهد قوم من السَّرِيَّةِ أن مالكا وقومه أذّنوا وأقاموا وصلوا ، وشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شىء فقتلوا .

فرأى أبو بكر أن خالداً لا يعدو أمره أنه تأول فأخطأ ، وأن الشهود مع هذا مختلفون فى شهادتهم ، والجناية فى الشرائع الحديثة يكفى مثل هذا فى سقوطها فى حال السِّلْم ، فما ظنك بحال الحرب ، فلا يصح أن يؤخذ خالد بالقود مع هذا وهو ذلك البطل الذى أبلى فى حروب الردة أحسن البلاء ، حتى قضى على تلك الفتنة التى كادت تقضى على الإسلام فى مهده ، وتعيد بلاد العرب إلى ما كانت عليه من وثنية مظلمة ، وفوضى هادمة مخربة ، وما كان مالك إلا ممن أغواهم الشيطان فأوقدوا نار تلك الفتنة فى بلاد العرب ، فذهبت فيها نفوس كثيرة من المسلمين كانت دماؤهم أذكى من دم مالك ، وكانوا أكرم على الله منه ، وإذا صح أنه عاد إلى الإسلام فقد عاد إليه والسيف مصلت على

(١) المنهال : رجل من بنى يربوع ، مر على أشلاء مالك لما قتله خالد ، فأخذ ثوباً وكفنه فيه ودفنه .